تاريخ فكرة إعجاز القرآن

منذ البعثة النبوية حتى العصر الحاضر، مع نقد وتعليق

— ١ —

معنى العجز لغة والاعجاز اصطلاحاً وتاريخ استعمال كلمتي معجزة وإعجاز

معنى العجز لغةً الضعف . وأصله لغةً التأخر عن الشيء . وهو ضدّ القدرة . وأعجزه الشيء فاته . وأعجزت فلاناً وعجّزته وعاجزته جعلته عاجزاً ، وجاء في القرآن الكريم : «وما أنتم بمعجزين في الأرض» . ومصدر أعجز الإعجاز ، ومنه اشتقت كلمة معجزة . وهي اسم الفاعل منه لحقته تاء التأنيث ، وواحدة معجزات الأنبياء التي تؤيّد بها نبوتهم . وقد صار لها هذا المعنى في زمن متأخر عن الرسالة ، فأطلقها العلماء عليه اصطلاحاً كما أطلقوا المصدر «الإعجاز» على اتصاف الشيء بها أي بأنه أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدّي ، سالم من المعارضة» .

ولم يرد في القرآن لفظ معجزة أو إعجاز وإنما جاء فيه ألفاظ آية وبرهان وسلطان . وهذه الكلمات لا ترادف كلمة معجزة ، ولا تشمل معنى الإعجاز المفهوم منها . وإنما تدلّ على جزء من معناها الذي يشمل أكثر من معنى جزئيّ واحد . وهذا الجزء يقابل كلمة الدليل أو الحجّة ، بمعنى أن حادثة من الحوادث هي دليل نبوّة أحد الأنبياء أو دليل الألوهية ، ولا يدل على أكثر من ذلك . أما كلمة معجزة فتدلّ على أمر خارق للعادة يكون دليلاً على نبوّة أحد الأنبياء دون غيره ، وبعجز غيره من الخلق عن الإتيان بمثله . ومن الصعب جداً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن نحدّد الزمن أو المكان أو الأثر الذي استعملت فيه كلمة معجزة أو إعجاز أول مرة بهذا المعنى الديني الاصطلاحي الفني . وعلى الرغم من أن الجدل في أمر النبوة بدأ في عهد النبي ، أثاره أرباب الديانات الأخرى الذين ناقشوا المسلمين في أمور الديانات منذ القرن الأول من الهجرة ، فان كلمة معجزة لم تظهر بظهوره وليست قديمة قدمه . يدلنا على ذلك ان علي بن ربن الطبري الذي ألّف كتاب « الأسلوب والبلاغة » في الربع الثاني من القرن الثالث الهجري ، لم يستعمل في كتابه كلمة معجزة أو كلمة أخرى مشتقة منها ، بل استخدم في المناسبات التي تدعو الى استخدامها كلمة آية التي كانت لا تزال مستعملة في عصره لمعناها . ولا نستطيع أن نستنتج من هذا أن كلمة معجزة لم تستعمل حتى ذلك الوقت ، وإنما نستطيع أن نؤكد أنها لم تكن شائعة الاستعمال ، وأنها لم تكن من القوة بحيث تكتسح مرادفاتها القريبة منها كالآية والبرهان والسلطان ... كما فعلت بعد . ويؤيد هذا أن احمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ يستعمل كلمة معجزة لما استعملت له بعده كلمة « كرامة » بالنسبة الى الأولياء ، وذلك الى جانب استعماله اياها بمعنى الأمر الخارق المؤيد للنبوّات . وأول كتاب عنون باسم « إعجاز القرآن » فيما نعلم هو كتاب محمد ابن يزيد الواسطي المتوفى سنة ٣٠٦ هـ ، ومن الواضح أنه ألف في أواخر القرن الثالث من الهجرة أو في مطلع القرن الرابع ، وقد وردت فيه كلمة معجزة . ثم أخذت كلمات آية وبرهان وسلطان تقلّ بعد ذلك في الاستعمال وتحلّ محلّها كلمة معجزة في بحث مسألة النبوة وقضية الإعجاز . ومن أصعب الأمور الآن أن نبيّن الأطوار والمراحل التي مرّت بها كلمتا معجزة وإعجاز ، ولكنّ من الواضح البدهيّ أنهما استمدّتا معنييهما الاصلاحيّين الحاليّين من تتابع استعمالهما وكثرة المناقشة فيهما مع مرور الزمن ومن الاسترسال في فهم أقصى ما تدلّ عليه كلمة معجزة من معانٍ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونحن نعلم أن نبوة الرسول العربي كانت موضوع مناقشة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ، وأن هذه المناقشة بدأت في الشام قبل وضع علم الكلام وكانت تتناول فكرة تحدّي القرآن للعرب وعجزهم عن معارضته في جملة ما تتناول من فِكَر ، وأن المسلمين يجعلون القرآن ، وهو الوحي الذي أنزل على النبيّ ، برهاناً على نبوّته ، ويرون أنه كلام ليس في طاقة الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله ، ونرى القرآن نفسه يصف أعداءه الذين لا يؤمنون به من العرب بأنهم « لا يأتون بمثله » . فاذا وضعنا مرادفاً لهذه الجملة كما فعل ابن جرير الطبري حين فسّرها في القرآن قلنا « يعجزون عنه » ونكون قد استعملنا صيغة « أعجز » للدلالة على عدم قدرة الإنس على الإتيان بمثل القرآن . وهكذا نتصور استعمال الكلمة لهذا المعنى أوّل مرّة . ونرجح أن مصدرها « الإعجاز » قد تلاها في الاستعمال للمعنى نفسه ثم انتقلا معاً الى طور آخر وهو الدلالة على أن القرآن بمثابة معجزات الأنبياء الخارقة لا على أنه معجز لمن يريد معارضته فقط . وحينئذ وضعت لهذا المعنى الشامل كلمة « معجزة » الجديدة . وهي مؤنث اسم الفاعل من أعجز [1] .

ويعرّف علماء الكلام المعجزة في كتبهم بأنها : « أمر خارق للعادة مقرون بالتحدّي ، سالم من المعارضة » ويملأون صفحات في مناقشة مدلولها وشروطها ، ويكفي أن نضرب مثلاً على ذلك القرطبيّ في كتابه « الجامع لأحكام القرآن » فهو يذكر شروطاً خمسة لا يصحّ من دونها لحادث أن يسمى معجزة وهي :

١ً — هذا الحادث ينبغي أن يكون مما لا يستطيعه الا الله .

٢ً — يجب أن يخرج على قوانين الطبيعة .

٣ً — وينبغي أن ينبئ عنه الحكيم قبل أن يقع بأن كذا وكذا سيحصل .

(١) راجع مستهلّ مقال الأستاذ عبد الحليم الهندي في مجلة :
« The Islamic Culture, N. 1, 32 the years »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٤ً — ويجب أن يكون الحادث الواقع موافقاً لما قال قبل .

٥ً — وألاّ يكون في استطاعة أحد أن يجري مثل هذا الأمر .

وهذا بالتلخيص ما يريده المتكلمون بكلمة « معجزة » .

يتضح مما سبق المراد من قولنا « إعجاز القرآن » فهو كونه أمراً خارقاً للعادة لم يستطع أحد معارضته برغم تحدّي الناس إليها .

وقد كانت هذه الفكرة مجالاً لبحوث وكتب كثيرة قام بها علماء مختلفة نزعاتهم . ولما كانت قد نشأت من تحدّي القرآن للعرب أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه كان لا بدّ من الكلام عن المعركة الفكرية الكلامية بينه وبينهم في حياة النبي قبل الحديث عن أطوار الفكرة المتعاقبة في البيئات والعصور المختلفة بعد وفاته .

* * *

المعركة الفكرية الكلامية بين القرآن وبين العرب

جاء الوحي النبي وللعرب مساوئ تضعف أمرهم وتفرق صفوفهم ، ولهم فضائل يمكن اذا وجهت وجهة حسنة أن تكوّن منهم أمة عظيمة . وكانت غاية الوحي صلاح دنياهم ودينهم ؛ فاشتمل على مبادئ دينية اجتماعية أخلاقية غايتها إنسانية بحتة . وكان يرمي أيضاً الى أغراض سياسية قومية تجعل من العرب حماة لهذا الدين ، وتؤلف بين قلوبهم ، فتجعلهم أمة واحدة وصفها القرآن بأنها « خير أمة أخرجت للناس » . وكانت هذه الدعوة متلائمة والبيئة التي استجابت لها لأنها تشريع مستمدّ من روحها تمليه شخصيتها ويتطلبه ارتقاؤها العقلي والروحي وتقدمها النسبيّ في اجتماعها ولغتها وبيانها .

ويتجلى الاستعداد النفسي العام للاستجابة الى هذا الإصلاح فيما ظهر قبل الإسلام فيها من حركة أدبية كان من مظاهرها تباري الشعراء في الأسواق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأدبية التجارية ، وتفكير شعراء وخطباء كطرفة وزهير وقسّ بن ساعدة في مسائل دينية ، كما يتجلى في هذه الحيرة الدينية العامة التي أدت ببعضهم الى انتحال مذاهب الصابئة واليهودية والمسيحية والمتألهة الحرّة ، وفي حركة حلف الفضول المباركة التي تدلّ على تقدّم اجتماعي بما تحمل من فكرة انسانية غايتها حماية الضعيف وإغاثة الملهوف ؛ وهي في حقيقتها وسيلة لمحاربة فكرة العصبية القبلية في رجالات قريش ، ومقدّمة للقضاء عليها في نفوس العرب جميعهم بسعي النبي وبعض خلفائه فيما بعد .

ولم يظهر النبي بصفة مصلح اجتماعي يضع القوانين من عنده ويقدمها لقومه على أنها قوانين وضعية بل جاءهم مرسلاً من الله ليخرج الناس من الظلمات الى النور . ولما كانت طبيعة هذه الرسالة ليست من الأمور المألوفة في حياة الناس العادية ، وكان اتصال الله بالنبي عن طريق الوحي مما لا يجري لكل الناس ولم يألفه العرب ، ولما لم يكن لديهم عن النبوة الا تصورمبهم مما كانوا يتداولونه عن ابراهيم واسماعيل وما كان يبلغهم عنهما ممن يخالطونهم من أهل الكتاب ، فقد استغربوا هذا الأمر من النبي وأنكروه بشدة ووقفوا منه موقف المتردد الحائر ، لما عرفوا من استقامته في سابق حياته ، واشتهاره فيما بينهم بالصدق والأمانة ، لا سيما وأن هذا القرآن الذي جاء به أسمى تأليفاً وأجمل أسلوباً من كلامهم ، سواء المنظوم منه والمنثور ، فقد كذبوه واستعذبوه في وقت واحد . ولو قيل لهم إن القرآن من عند النبي نفسه لا من عند الله لما وجدوا في هذه الدعوة الى الاصلاح غرابة . وذلك لأن طبيعة البيئة إذ ذاك كانت تتطلب هذه الاصلاحات التي جاءت بها الرسالة . على أن الاختلاف في الاستجابة لها لم يكن يبدو في غير الصورة التي ظهر بها في الراجح . وذلك لأن الناس في هذه الحركة الإصلاحية جانبان : جانب الضعفاء الذين وجدوا فيها فائدة لهم ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وخلاصاً من ظلم الأقوياء ، وتحقيق حرية مفقودة ، وينضم اليهم من جبلت نفوسهم على الخير العام ، وجانب الأقوياء الذين يعاكسون هذه الحركة الجديدة ، لأنهم يرون أن فائدتهم الخاصة تستقر وتقوى باستقرار النظام القديم ، ولأن سلطان التقاليد على نفوسهم عظيم ، فيستصعبون أن يغيّروا من أنفسهم ما اعتادوه ووجدوا عليه آباءهم . وينضمّ لهؤلاء ذوو التفكير المادّي الواقعي الذين لا يؤمنون بإمكان اتصال الله بالبشر . ورجال هذا الجانب هم الذين شاكسوا النبي ووقفوا في وجهه حتى جاءه النصر . وكان من الطبعي أمام هذا أن يبرهن النبيّ على صحة رسالته وصدق مدّعاه في الوحي ـ وهو أمر كما قلت غير مألوف لديهم ـ بمعجزات تؤيده ، وتكون غير عادية ولا مألوفة في حياتهم . وعلى ذلك جرت سنّة النبوات في تأييدها ، فكان لموسى عصاه ، ولابراهيم ناره ، ولعيسى إبراؤه الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، كما كان لغيرهم من الرسل غيرها من المعجزات . وقد ذكر القرآن كثيراً من أخبارها .

وكانت معجزات هؤلاء الرسل كما نرى حسية . ولكن العرب لما طالبوا النبي بمثل هذه المعجزات سخر منهم القرآن ، وفند آراءهم وطلباتهم ، قائلاً بأنه لو أتاهم بها لم يؤمنوا بما آمن به غيرهم ممن شرح الله صدرهم لهذا الدين ، كما لم يؤمن من قبلهم من الكافرين بتلك المعجزات الحسية ، وإنما يهدي الله من يشاء . ويسجّل القرآن طلبهم هذه المعجزات كما يسجل رفضه إجابتهم اليها . قال تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » . وقال في موضع آخر : « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » . وقال في سورة الفرقان : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتّبعون إلا رجلاً مسحورا » . وقال في سورة الإسراء : « وقالوا لن نؤمن لك حتى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » . وقال في سورة الأنبياء : « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون . ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون » .

وقال في بيان أن المعجزات لن تفيد في هدايتهم شيئاً : « ولو نزلنا عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » . وقال أيضاً : « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » .

واحتج علماء الاسلام لصاحب الدعوة الاسلامية في عدم إتيانه بالمعجزات بما احتج به القرآن من أنه لو أتاهم بها لما آمنوا ولقالوا إنها سحر . واحتجوا بأن هذه المعجزات الحسية إنما تحمل الى ذوي العقول الجامدة والنفوس الخاملة من الأمم غير الأمة العربية . أما العرب فهم في رأي هؤلاء العلماء يمتازون بالذكاء والعقول الراجحة ولذلك كانت معجزتهم معنوية بيانية ، وهي القرآن[1] . وقالوا أيضاً بأن المعجزات الحسية تزول بزوال مشاهديها زمن النبي . وأما المعجزة البيانية فهي باقية أبد الدهر ، واحتجوا بقول القرآن : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وعلل أكثر العلماء ذلك بما نسميه نحن أثر البيئة ومقتضياتها . فقالوا إن معجزة كل نبي كانت من جنس الفن الذي اشتهر في قومه إلى عهده . ولذلك كانت معجزة موسى من جنس السحر ، ومعجزة عيسى من جنس الطب ؛ لأنهما

(١) ابن العربي : الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفنان الذائعان في عهديهما . وجاءت معجزة النبي من جنس الفن الذي اشتهر به العرب وبلغوا به الذروة وكانوا يتفاخرون به ويسامي بعضهم بعضاً وهو فن البيان .

ولا شك في أن العرب كانوا قد بلغوا في ذلك الحين من الفصاحة والبيان غاية كبيرة ، واستقامت تعابيرهم إفراداً وتركيباً ، وتمت لهم أدوات الفصاحة على ما يقضي به قانون الارتقاء والنشوء في بيئتهم . ويدل على نضج بيانهم أدب المعلقات .

ولا شك في أن قريشاً كانت من بين جميع القبائل أكثرها فصاحة ، وأحسنها نظاماً ، وأرجحها أحلاماً ، وأكثرها مالاً ، لما أهلتها له بيئتها وموقعها الجغرافي ومكانتها الدينية . فموقعها بين الشمال والجنوب ، وحملها التجارة من طرف الى آخر ، وحمايتها للبيت الحرام ، كان منه اختلاطها بالقبائل العربية كلها من عدنانية وقحطانية (وبالأولى من شمالية وجنوبية) . فرفع هذا الاختلاط والتمازج من مستواها العقلي والاجتماعي ، وحملها على تنقية لغتها ، وتهذيب أساليبها ، وانتقاء أحسن ما في لهجات القبائل الأخرى من ألفاظ ومعان وأساليب .

ولكن هل صحيح أنهم ـ كما صورهم بعض العلماء ـ كانوا قد بلغوا القمة في البلاغة والبيان ، وأن من جاء بعدهم في العصور الاسلامية كان عالة عليهم ودونهم بياناً وقدرة على التعبير ، أو أن الأمر على العكس من ذلك فكانوا مرحلة تمهيدية لمن جاء بعدهم من الكتاب والشعراء والخطباء في العصرين الأموي والعباسي وبخاصة الأخير الذي كان أدباؤه أكثر منهم مرونةً وجولاناً في ميادين الفكر والبيان ؟ ..

أظن أن القول الأخير هو الأصح . وهو لا يقدح في فكرة إعجاز القرآن ، لأن العلماء قالوا بأنه معجز أبد الدهر وبأن فضله يظهر على كل نص أدبي متقدم أو متأخر حين يقارن به ، ولا يعارض هذا بأي حال فكرة النشوء والتقدم في تطور الأدب العربي ، وإنما يقضي فقط على فكرة المعتقدين بأن الأدب الجاهلي هو أكمل مثال في تاريخ الأدب العربي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومما يدل في رأيي على أن الأدب الجاهلي كان بمثابة تمهيد للعصور الأدبية التي بعده أنه كان ينقصه فنّ أدبي كان لا يزال في الجاهلية في بدء تكوينه وهو النثر الفني ، وأن الخطابة كانت لا تزال في بيئتهم طفلة في المهد لم تنمّها تلك المزّات الاجتماعية والسياسية العنيفة التي حدثت في طفولة الإسلام وشبابه ، وأن أكمل الفنون الأدبية الجاهلية هو الشعر ، ولا يساوي على التحقيق شعر العصر العباسي الأول إذا قسناهما بمقاييس فنية صحيحة .

وتخلف العرب في فني الخطابة والنثر الفني كانت دهشتهم من بيان القرآن وأسلوبه عظيمة جداً ، دونها دهشة وتقدير الأدباء العباسيين الفحول الذين تجرأ بعضهم ـ أو اتُّهم بأنه تجرأ ـ على معارضة القرآن . بل ادّعى كثيرون ممن يقولون بإعجاز القرآن أنفسهم أنه ليس معجزاً من حيث بيانه ، بل بأمور أخرى كالصرفة أو الإخبار بالغيب . وإني لا أنفي بهذا أنهم كانوا يتفاخرون بالبيان ويحتفلون بنبوغ شاعر أو خطيب ، ولكني لا أرى ان الزمان قد رجع في البيان العربي القهقرى في عهد عزّ العرب الاسلامي .

وربّما فهم من هذا من لا يقول بإعجاز القرآن من الوجهة البيانية ، أو من ينفي الفكرة من أساسها ، أن القرآن ليس إلا طوراً من أطوار النثر العربي ، وأنه فوق النثر الجاهلي ودون النثر العباسي من حيث الفن والمرونة والقدرة على الاداء . وهذا غير صحيح ولا أقصده . ذلك لأن القرآن في تاريخ الأدب العربي قائم بنفسه ، لأنه فذّ في بيانه . ويكفي لإدراك تفوّقه أن يكون الناقد قد استوفى حظه من الذوق الأدبي الفني ، فيقارن بينه وبين نصّ أدبي آخر ليشعر بالفرق المحسوس بينهما ، ذلك الفرق الذي جعله معجزاً رائعاً ، والذي يرجع الى أسباب سأذكرها في حينها .

وقد اتفق العلماء والأدباء القائلون بالإعجاز ، حتى الذين لم يقولوا منهم بإعجاز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القرآن من الناحية البيانية ، على أنه جاء من الفصاحة بالدرجة التي لا تبارى . وأضاف القائلون بإعجازه البياني الى ذلك أنه كان بهذا معجزة الرسول الخالدة . ويضيف أكثر هؤلاء الى ذلك بأنه معجزة لكل الأمم ولكل العصور . وحجتهم على ذلك أن العرب يومئذ قد ملكوا ناصية البيان فإذا كانوا عاجزين عن المجيء بمثله ففيرهم أعجز .

وقد أشرت الى هذا الرأي القائل بأن العصر الجاهلي هو أكثر عصور الأدب العربي ازدهاراً ولم آخذ به . وبهذا تسقط هذه الحجة الأخيرة برغم أن الرأي الذي تريد دعمه صحيح عندي ، ويؤيده مقارنته بما في أيدينا من نصوص أدبية .

والحقيقة الراهنة في تاريخ القرآن أن أحداً لم يوفق إلى معارضته معارضة ناجحة . ومن حاول ذلك لم يستطع المجيء بمثله بياناً ، وسخّفه العلماء والأدباء ، ووجدوا أنه جاء بالمدفوع الساقط الذي لا يمكن أن يقاس بالقرآن فضلاً عن أن يجاريه .

واذا تركنا الإيمان الديني جانباً ، وأردنا أن نعلل ذلك بالمنطق ، رأينا أن ذلك كان لضعف الشعور النفسي لدى الأدباء بالقياس الى الشعور النفسي لدى النبي ويدلنا على شدة هذا الاحساس في نفسه ما كان يعانيه حين هبوط الوحي على نفسه الشاعرة المتعمقة من الذهول عن الناس وتصبب العرق والتعب .

واذا رجعنا الى الاعتبار الديني كان فيض هذا الشعور النفسي الديني لدى النبي أمثل وأقوى في أذهاننا ، سواء أكنا مع القائلين من علماء المسلمين بأن معاني القرآن منزلة وأن اللفظ من النبي ، أو مع القائلين بأن القرآن بمعناه ولفظه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد اتفق كل من كتبوا في الإعجاز ـ الذين سنرى آراءهم بالتفصيل ـ على أن القرآن معجزة وأنه دليل النبوة ، بل قال الباقلاني ـ وسنرى ذلك ـ أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات والشك في المشاهدات ، ولكنهم اختلفوا في أسباب اعجازه .

لم ينتج العلماء القول بأن القرآن معجز ، فإن آيات التحدي التي فيه تثبت أن دعوى الإعجاز كانت تساير نزول الوحي ، وسيأتي ذكر هذه الآيات . وإلى جانب آيات التحدي هذه نجد القرآن يصف نفسه بأنه برهان النبوة ودليلها في عدة مواضع . منها قوله في سورة العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون » فجعل أميّة النبي مع إتيانه بالقرآن دليلاً على النبوة . وقوله في سورة البقرة : « وكذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تعقلون » . وقوله في سورة الحج : « وكذلك أنزلناه آياتٍ بيّنات وإن الله يهدي من يريد » . وقوله في موضع آخر : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

فاتضح أن هذه الآية قد عدّت القرآن معجزة للنبي بمنزلة معجزات غيره من الأنبياء .

وذكر السيوطي (الاتقان ج ٢ ص ١٩٧) أن النبي (ﷺ) قال : « ما من الأنبياء نبي أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا » ـ أخرجه البخاري .

ويقول العلماء ان القرآن وحده معجز دون غيره من الكتب السماوية ، لأنها لا تدلّ على أنفسها إلا بأمرٍ زائد ووصفٍ مضاف اليها ، لأن نظمها ليس معجزاً ، وإن كان ما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب معجزاً ، وليس كذلك القرآن لأنه يشاركها في هذه الدلالة ويزيد عليها في أن نظمه معجز . (الباقلاني ، إعجاز القرآن ص ١٧) .

ولا ريب في أن القرآن أدهش العرب لمّا سمعوه . وذلك لما وجدوه فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من سحر البلاغة والتأثير في النفوس ، سواء المنكرة له أو المؤمنة به . ولهذا حار المشركون في وصفه وخافوا من أن يستميل اليه قلوب مستمعيه منهم ، فصاروا يصدّون عنه وينأون عنه ، ويصفونه مرة بأنه شعر ، ومرة بأنه سحر ، ولم يستطع فصحاؤهم إنكار روعته في النفوس وتغلغله في القلوب .

ذكر السيوطي في الإتقان [أن الحاكم أخرج عن ابن عباس أنه قال : « جاء الوليد بن المغيرة الى النبي (ﷺ) فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر - يؤثره على غيره -] .

وقد ذكر القرآن هذه القصة في سورة المدثّر فقال : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالاً ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلاّ إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ، ثم قتل كيف قدّر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر» .

ونرى في القرآن أيضاً ما يدل على ثقته بأثره البالغ في نفوس سامعيه من المشركين والمؤمنين فقد قال : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله » . وقال حكاية عن المشركين أنهم قالوا : « لا تسمعوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لهذا القرآن والغَوْا فيه لعلكم تغلبون» . وقال : «الله نزّل أحسن الحديث ، كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله» . وقال أيضاً : «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» .

ويظهر أن زعماء المشركين لما رأوا شدة تأثير القرآن في نفوس سامعيه أخذوا يتجافون عن سماعه ، ويمنعون ضعفاءهم وصغارهم من الإصغاء اليه ، وينعتونه بصفات مختلفة ، غرضهم منها أن يبينوا أنه ليس من عند الله وانما هو من صنع البشر ، إنكاراً لفكرة الرسالة . فقالوا «إنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تتلى عليه بكرة وأصيلاً» . وقالوا : «إنما يعلمه بشر» . وقالوا : «إنه افتراه وأعانه عليه قوم آخرون» . وقالوا «أضغاث أحلام» . وقالوا «ماهو الا بشر مثلكم يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم» . وقالوا «ما أنزل الله على بشر من شيء» . وقالوا: «ان النبي مجنون» . وسجّل القرآن كل أقوالهم هذه في كثير من سوره ، ودافع عن هذه التهم فقال في تهمة الشعر : «وما علمناه الشعر ، وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين» وقال في تهمة الافتراء : «أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم» .

فلما نعى عليهم ضعف عقولهم ، واسترسالهم في اهوائهم ، قالوا : «إن ما تأتي به مثبه لما يأتي به شعراؤنا وخطباؤنا فأنت تأتي بالقرآن تفصيلاً بحسب المناسبات مثلهم فلِمَ لا تأتي بالقرآن جملة واحدة : «وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبّت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيرا» . وطلبوا منه أيضاً أن يغير القرآن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أو يبدله : « وقال الذين كفروا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

ولم يكونوا يقصدون من كل هذه الحملات على الرسول والقرآن إلا إنكار الرسالة ومناهضة النبي . فلما لفتهم الى مواطن الخير الذي يدعو اليه القرآن ، والى تذوّق روعته التي لم يستطيعوا إخفاء أثرها فيهم ، قالوا نحن قادرون على مثله . وفي ذلك يقول القرآن : « واذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا الا أساطير الأولين » .

وأمام هذا التحدّي منهم كان لا بدّ للقرآن من أن يتحداهم علانية وبقوّة ، ليبيّن أنه معجزة النبي اليهم . فآيات التحدي كانت مناسباتها وأسباب نزولها هذه الحملة منهم على القرآن وتكذيبهم للرسول . ذكر ذلك الألوسي أثناء تفسيره آيات التحدي في سورة الإسراء ، وسورة هود ، وسورة البقرة . فقد قال في سبب نزول سورة الإسراء : « فقد روي أن طائفة من الأوّلين قالوا أخبرنا يا محمد بهذا الحق الذي جئت به ، أحقٌّ من عند الله تعالى ؟ فإنا لا نراه متناسقاً كتناسق التوراة . فقال (ﷺ) لهم : أما والله إنكم لتعرفونه أنه من عند الله تعالى . قالوا : إنا نجيئك بمثل ما تأتي به فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقبل هذه الرواية يقول الألوسي إن في هذه الآية ردّاً لليهود أو قريش في زعمهم الإتيان بمثله . وبقول في رواية أخرى إن جماعة من قريش قالوا له (عليه الصلاة والسلام) جئنا بآية غريبة غير القرآن فإنا نحن نقدر على المجيء بمثله ، فنزلت . وقال لعلّ مرادهم بهذه الآية الغريبة ما تضمنه من الآيات بعد وهي قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا .. الخ » .

وأما سبب نزول آية سورة هود فقد ذكر في القرآن في الآية التي قبلها :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل . أم يقولون افتراه » وقال الآلوسي : وقيل القائل لكل عبد الله بن أمية المخزومي .

وقال في آية سورة البقرة : « سبب النزول كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد لا يشبه الوحي وإنا لفي شك منه » .

وقد وقع التحدي في عدة آيات من القرآن : آية وردت في سورة يونس وهي : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولم يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » .

وآية في سورة هود وهي : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين » .

وآية في سورة البقرة وهي : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله ، إن كنتم صادقين » .

وآية في سورة الطور وهي : « أم يقولون تقوّله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » .

وآية في سورة الإسراء وهي : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

أما ترتيب هذه الآيات من حيث النزول فقد اختلف فيه . وأكثر علماء التفسير والبلاغة مجمعون على أن القرآن تحداهم أولاً في أن يأتوا بمثل القرآن ، وذلك في آية سورة الطور ، فلما عجزوا تحداهم في أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وذلك في سورة هود . فلما عجزوا تحداهم بسورة مثله في سورة يونس . ثم كرّر نفس التحدي بنفس المقدار في سورة البقرة حيث جزم بأنهم لن يستطيعوا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم سدّ عليهم منافذ القول في آية سورة الإسراء حيث قال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن ... الخ » . وذكر هذا الترتيب السيوطي (في الاتقان ج ٢ ص ١٩٨) والفخر الرازي (في التفسير الكبير) والرافعي . وقال صاحب الطراز (ج ٣ ، ص ٣٧٠) : « إن التحدّي وقع على ثلاث درجات ، الأولى بمثل القرآن كله في سورة الطور والإسراء ، والثانية بعشر سور في سورة هود ، والثالثة بسورة واحدة في سورتي البقرة ويونس » .

وقال الألوسي إن الكثير على أن التحدي بعشر سور وقع قبل التحدي بسورة ، ولم يذكر مواقع الآيات الأخر في ترتيب آيات التحدي . وكذلك فعل صاحب الكشاف . وذكر الألوسي أيضاً قول ابن عباس في أن القرآن حينما تحداهم تحداهم بعشر سور معينة هي العشر الأولى الموجودة في ترتيب القرآن الحالي ، وذكر اعتراض أبي حيان في أن هذه السورة مكية فكيف تصحّ الحوالة على ما لم ينزل بعد وقوله : إن هذا لا يصحّ عن ابن عباس .

وذكر الألوسي ذهاب ابن عطية والمبرد إلى أن التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور أي أن آية سورة يونس وآية سورة البقرة نزلتا أولاً ثم نزلت آية سورة هود . وذكر في تبرير ذلك ما قاله ابن الضريس نقلاً عن ابن عباس في أنه تحداهم بسورة مثله في البلاغة والاشتمال على الغيب والأحكام ، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور مثله في النظم . وقال إن صاحب الكشف ضعف هذا الرأي وإنه لا يطّرد في كل سورة من سور القرآن . وهب أن السورة متقدمة النزول إلا أنها لما نزلت على التدريج جاز أن تتأخر تلك الآية عن هذه ولو تقدمت سورتها وأيد الشهاب رأي المبرد في أن التحدي كان أولاً بسورة ثم بعشر .

ونحن اذا رجعنا الى ترتيب السور التي فيها التحدي في القرآن كما جاء به السيوطي (ص ١٥ ج ١ من الإتقان) رأينا أن سورة الإسراء نزلت أولاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويتلوها سورة هود ثم سورة الطور ثم البقرة ، والثلاث الأولى مكية . ثم يذكر في استثناءات الآيات المدنية من السور المكية رأيًا مآله أن آية التحدي في سورة الإسراء مدنية . وبهذا تكون آية سورة هود وفيها التحدي بعشر سور قد نزلت قبل آية الطور وفيها التحدي بمثل القرآن . وهذا يخالف ترتيب الجمهور الذي ذكره هو في الجزء الثاني من الإتقان وأثبت به آنفًا .

واذا رجعنا الى ترتيب السور لدى صاحب الكشاف نجد عنده نفس ترتيب السور لدى صاحب الإتقان ، إلا أنه لا يذكر أن آية سورة الإسراء مستثناة . وبهذا يكون التحدي بحسب صاحب الكشاف قد وقع أولاً بمثل القرآن ، ثم بعشر سور ، ثم بمثل القرآن ، ثم بسورة .

وإذا رجعنا إلى ترتيب نولدكه للسور نجدها عنده على الترتيب التالي : سورة الطور ثم الإسراء ثم هود ثم البقرة ، ولم يذكر استثناءات الآيات المدنية من المكية . فإذا اعتبرنا استثناء آية التحدي من سورة الإسراء المكية صحيحًا فجعلناها مدنية وأخرناها في الترتيب عن آية سورة البقرة وصلنا الى رأي الجمهور في الترتيب بحيث يكون التحدي وقع أولاً بمثل القرآن في سورة الطور ثم بعشر سور في هود ثم بسورة واحدة في يونس والبقرة ، ثم بقطع أمل الإنس والجن في التحدي في سورة الإسراء .

ولا شأن لهذا الاختلاف في ترتيب آيات التحدي إلا إثبات أن القرآن قد تحدى العرب بما يستدعيه المنطق من التحدي بالأصعب فالأسهل . فإذا أخذنا في تفسير بعض الآيات بما يقول به بعضهم من أن المقصود من ذكر المقدار ليس التحديد والعدد وإنما هو مجرد الإتيان بمثله ، لم يكن لهذا الترتيب قيمة منطقية أو عملية . والواقع أن هذا التحدي قد وقع فعلاً ، وأن مسألة الكم لم تكن مقصودة ، لأن مقتضى الحال لم يكن يستدعي هذا التحديد في المقدار .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وممن قال بهذا الرأي الشهاب الخفاجي . ويؤيده أن آية سورة الإسراء ، وهي آخر هذه الآيات في الترتيب لم تذكر بها مسألة الكم بل قيل فيها : « على أن يأتوا بمثل هذا القرآن » والمثل هنا ينطبق على القليل والكثير منه وعليه كلّه .

فإذا أخذنا بهذا الاعتبار ، وهو أن الكم لم يقصد في هذا التحدي ، وإنما قصد الكيف ، جنبنا أنفسنا عناء البحث في الترتيب الصحيح الدقيق لهذه الآيات ، ولا سيما إذا لاحظنا أن ترتيب الآيات في سورها ليس دقيقاً ومرتّباً بحسب تاريخ النزول على الصحيح فقد روي أن النبي كان اذا نزلت الآية يقول لأصحابه ضعوها في مكانها من سورة كذا .

وبعض المدني يحتوي المكي وبالعكس . والمسألة لا تعتمد على العقل ، وإنما مآلها النقل . ولا يمكن الاعتماد عليه الى حد كبير . فقد كثر الاختلاف فيه كما قلّت فيه الدقة . وكذلك لا يمكن أن نستدلّ من قصر الآيات وطولها وأسلوبها على هذا الترتيب ، لأن بعض الآيات المكية أسلوبها مدني وبعض الآيات المدنية أسلوبها مكي ، ولأن قصر الآيات وطولها يتبع الفكرة وتأجج العاطفة لا مكان النزول وتاريخه .

هذا وقد أدّى بحث العلماء في التدرّج في التحدي من حيث الكم في القرآن الى مقدار المعجز منه ، واختلفوا في ذلك . والجمهور على أنه مقدار أصغر سورة وهي سورة الكوثر . واعترض عليهم بعض الباحثين في ذلك . وذكرت في المسألة أقوالٌ كثيرة لا مجال لذكرها هنا . وأوجهها أن مقدار المعجز — ان صحّ أن له مقداراً ولم يقصد به الروح العامة المنبثة في القرآن دون نظر الى الكم — هو مقدار ما يؤدي فكرة كاملة . فربما نقص عن مقدار سورة الكوثر كآية : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » وربما زاد عنها كثيراً ، أو كان آية واحدة كآية الدين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد اختلفوا في عصر التدوين أيضاً فيما هو المعجز من القرآن وذهبوا فيه مذاهب شتى سيأتي الكلام عليها . والصحيح أن النبي أطلق التحدّي ولم يعينه كما لم تفسره الاحاديث النبوية . وأقوم الوجوه في بيان هذا التحدي هو ما يمكن أن يفهمه العربي في تلك البيئة التي أوحي فيها القرآن وما كان متناسباً مع مقتضى حال النبي معهم . وهو أن يأتوا بما هو مثل القرآن في كل شيء كما يستفاد من لفظ المماثلة ويشمل ما في القرآن من بيان وأسلوب وفكرة وعاطفة متأججة وخيال وحسن معرفة في مخاطبة النفس — حتى لكأن الروح تخاطب الروح — وما فيه من علم وأخبار عن الماضي والمستقبل . وهذا كله مما تعجز مؤهلاتهم وثقافتهم عن مثله .

هذا وقد وقع التحدي اليهم مبكّراً . وظل النبي بين ظهرانيهم يدعوهم الى الاسلام ثلاثاً وعشرين سنة . ونزلت آيات التحدي في فواصل زمنية متباعدة . فلا يمكن أن يكون لم يبلغهم كما زعم بعض من أنكروا إعجاز القرآن ، كما لا يتأتى ألا يفهم العرب ما هو وجه التحدي المقصود كما زعم آخرون ، لأن النبي كان بينهم وكان في استطاعتهم أن يسألوه عما غمض عنهم ثم يتحدّوه إن استطاعوا .

وأجمع المؤلفون على أن العرب كانوا من الحمية والأنفة بحيث لا يقبلون مثل هذا التحدي ، وأن أسبابهم من حيث الفصاحة والبيان والرغبة لمناهضته كانت كافية لأن يجدوا في القول سعة لو استطاعوا . واعتقاد بعض المؤلفين أن العرب قد ملكوا أعنة القول البليغ ولهم فيه القدح المعلّى جعلهم يقولون بالصرفة أي بأن الله أفقدهم القدرة على المعارضة أو سلبهم العلوم التي يمكن أن تعينهم على على نظم كلام مضارع للقرآن . ورد آخرون من العلماء على أن ذلك ليس في طوقهم لأنه ليس في كلامهم السابق للقرآن واللاحق له ما يصح معارضته

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالقرآن من حيث خصائصه ومميزاته المعنوية والفنية ولو وجد لرأيناه في أشعارهم .
وقال بعضهم بأن هذه المعارضة ربما وجدت ولكن المسلمين أهملوها وأخفوها .
وأجيبوا بأنه لو وجدت معارضة يصح أن تساوي القرآن وتقاربه لاشتهر أمرها ، ولقضت على سلطان القرآن ، وأثبتت كذب صاحب الدعوة في تلقيه الوحي ، ولكان لها من القيمة أضعاف ما للقرآن . والأقرب للصواب أن يكون العرب قد حاولوا معارضة القرآن فما استطاعوا وجاؤوا بما هو دونه بمراحل .

وفي تاريخ السيرة النبوية ذكر بعض من ادعوا النبوة وحاولوا مناهضة النبي في السلطة والسياسة والوصول الى ماوصل اليه ، في حياته وبعد وفاته ، وأن بعضهم حاول نظم قرآن شبيه بالقرآن ليشرّع فيه للناس ما يرى تعديله من شريعة النبي ولبؤيد نبوته بمعارضة القرآن .

منهم مسيلمة بن حبيب الكذاب . تنبأ باليمامة في بني حنيفة على عهد الرسول بعد أن وفد عليه وأسلم . وكتب اليه في سنة عشر من الهجرة : « أما بعد فإني قد شوركت في الأرض معك وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها لكن قريشاً قوم يعتدون » وقد ادعى مسيلمة أن له قرآناً من السماء يأتيه من ملك يسمى « رحمان » ومن قرآنه الذي رواه له المؤلفون قوله : « والمبذرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالةً وسمناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ آووه ، والباغي فناوئوه » . ومنه أيضاً : « إنا أعطيناك الجماهر ، فصلّ لربك وجاهر ، ولا تطع كل ساحر » . ومنه : « والشاة وألوانها ، وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فما لكم لا تمجعون » . وقوله أيضاً : « الفيل ما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له ذنب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويل ، وخرطوم طويل » . وقوله : « يا ضفدع يا بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين » .

ومنهم طليحة بن خويلد الأسدي . تنبأ زمن النبي بعد أن وفد عليه وأسلم . وكان يزعم أن ذا النون يأتيه بالوحي — وقيل بل يزعمه جبريل — ولكنه لم يدّع لنفسه قرآناً بل كلمات يزعم أنها أُنزلت عليه . قال الرافعي : « ولم نظفر منها بغير هذه الكلمة رأيناها في معجم البلدان لياقوت وهي قوله : « إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئاً ، فاذكروا الله قياماً ، فان الرغوة فوق الصريح » .

وذكر الرافعي (هامش ص ١٨٢ من كتابه الإعجاز) أن عيينة قال لطليحة أثناء حربه مع خالد بن الوليد : ما قيل لك ؟ قال : « إن لك رحى كرحاه وأمراً لا تنساه » فقال عيينة : « قد علم الله أن لك أمراً لا تنساه ، يا بني فزارة ! هذا كذاب ما بورك لنا وله فيما يطلب » . وفي معجم ياقوت أن عيينة قال له : « هل جاءك ذو النون بشيء » قال نعم قد جاءني وقال لي : « إن لك يوماً ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحى كرحاه وحديثاً لا تنساه » ، وانهزم طليحة ولحق بنواحي الشام وأسلم بعد ذلك وكان له في وقعة القادسية بلاء حسن .

ومنهم سجاح بنت الحارث التميمية . وتنبأت بعد وفاة الرسول . وتزوجت مسيلمة . ولم تدّع قرآناً . وإنما كانت تزعم أنه يوحى اليها فتأمر وتسجع ، كقولها حين توجهت نحو مسيلمة : « عليكم باليمامة ، ودفّوا دفيف الحمامة ، فإنها غزوة صرامة ، لا يلحقكم بعدها ملامة » .

وفي رواية صاحب الأغاني أنه كان فيما ادّعت أنه أُنزل عليها : « يا أيها المؤمنون المتقون ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً قوم يبغون » . وهي كلمة ذكرت لمسيلمة أيضاً وقد مرّت آنفاً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومنهم عبهلة بن كعب ، الملقب بالأسود العنسي . تنبأ باليمن قبل وفاة الرسول . وليس له قرآن . وقتل بعد وفاة الرسول .

ومنهم النضر بن الحارث . ولم يدّع النبوة ولا الوحي . ولكنه زعم أنه يعارض القرآن . فلفّق شيئاً من أخبار الفرس وملوك العجم وبالغ بها فجعلها خوارق ، لأنه جاء بأخبار يجهلها العرب . ولم يخل الأدباء والمؤرخون كثيراً بأخباره .

واذا تأملنا هذا القرآن الذي جاء به مسيلمة والأسود العنسي وجدناه ركيكاً سافطاً ، ووجدنا بعضه قرآن معدة كما يقول الرافعي . ولا ندري أكان كل هذا القرآن كذلك أم كان فيه أجود منه ونسي أو تنوسي ، كما لا ندري اذا كان لها حقيقة ولم يكن مفترىً عليها . فمن المحتمل أن يكون بعض المسلمين قد وضعوه للتندّر والتهكم ، كما وضعوا حديث اجتماع مسيلمة مع سجاح حين زواجه بها وما قاله من الأشعار في حلفه معها وزواجه منها .

وعلى كل حال فمن المرجح ، إذا لم يكن من المؤكد ، أن هذه المعارضة الصالحة لو وجدت لقضت على مكانة القرآن وزعزعت مركز النبي السياسي والدبني ، ولاشتهرت اشتهار القرآن أو كانت هي الأشهر ، ولتداول المشركون الحديث عنها خلفاً عن سلف . فلم يكن هنالك إذن من معارضة قيمة حقيقية .

أما ما لقيه أولئك المتنبئون من تأييد قبائلهم فراجع الى طموح هؤلاء المتنبئين السياسي وطموح قبائلهم وعصبيتها ، ومنافستها قريشاً كما يظهر من أقوالهم السابقة ، أو منافستها الأنصار ، رهط النبي ، لأن السلطة آلت زمن انتصاره في أواخر حياته الى هذين الفريقين : قريش والأنصار . والعامل في حركاتهم الطمع المادي الاقتصادي .

فالأرجح إذن أن يكون القرآن قد سدّ ببلاغته على العرب مجال التفكير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذه المعارضة ، فأدركوا في سريرتهم عجزهم ، وأسرُّوا هذا العجز ، ورجعوا الى نغمة الحملة على القرآن بأنه محض افتراء ، وأن صاحب الرسالة كذاب ، ليخفوا وراء هذا الكلام عجزهم ، وانصرفوا — كما يقول العلماء — عن الحرب الكلامية الى حرب السيف والرمح ، واعتذروا عن عدم اتباع آراء النبي في الدين بالمحافظة على عاداتهم وديانتهم القديمة ، فقالوا : « أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » و « ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين » وانتهت هذه المعركة بين العرب والقرآن بأن سجل هزيمتهم النهائية في باب البيان فقال في سورة الإسراء : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

يلخص الجاحظ هـذه المعركة الكلامية بقوله (دلائل الإعجاز الجرجاني ص ٢٩٨) « ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبين له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لأظهر عجزه لغاً ولفظاً » وبقوله الذي ذكره صاحب الإتقان (ج ٢ ص ٢٠٠) : « بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغـةً وأشدَّ ما كانت عُدَّةً ، فدعا أقصاها وأدناها الى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة . فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية ، دون الجهـل والحيرة ، حملهم على حظهم بالسيف وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً الى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو آيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستوراً ، وظهر منه ما كان خفياً . فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا قال فهاتوها مفتريات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر ، ولا طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عنه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض .

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال . وهذا من جليل التدبير الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات . ولهم القصيد المجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار المعجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به أفصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم . فمحال أكرمك الله أن يجمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر والخطإ المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا اليه ، والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة . وكما أنه محال أن يطبقوه ثلاثا وعشرين سنة على الغلط في الأمر الجليل المنفعة ، فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه » .

* * *

(يتبع) نعيم الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net